صدى الحرية

أسبوعية ثورية اجتماعية
توعوية منوعة

صدى الحرية | العدد 96 | الجمعة 27 / شباط | 2015

فريق QMT قدسيا الإعلامي

للتواصل وإرسال المشاركات :
Facebook / SadaALhoryeh **
freequd@gmail.com

الإعلام والأثر في التغيير

دمشق خط الدفاع الأول

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

صديقي الشهيد ..لا أحد

الإعلام والأثر في التغيير

مما لاشك فيه أن أثر الإعلام في الثورة السورية كان أساسياً، بل يعتبر اللاعب الأكبر في المعركة، التي توصف بأنها غير متكافئة، على كافة الأصعدة، والإعلام واحدٌ منها.
إعلامياً سقطت أجهزة الإعلام لنظام الأسد، والأدلة كثيرة واضحة، بالمقابل لم ينجح الإعلام الثوري في الاستفادة من هذا الانهيار وتجييره لخدمة الثورة والناس، بل برز تقصير واضح، إضافة لمراعاة بعض المصالح الأمر الذي فرض قيوداً جديدة وبقي إعلام الثورة تحت وصاية طرفين المصلحة العامة، وأطراف معينة.
انتشار مواقع التواصل الاجتماعي برز في الفترة الأخيرة في ظل الثورة وسما نفسه "إعلاماً إلكترونياً"، في وقتٍ يفتقر فيه إلى المهنية في نقل الخبر والاحترافية، هذا الواقع يعتبر مقبولاً بالنسبة للصفحات الثورية فيما يعتبر مثلبة لصفحات توالي النظام، وهي بذات الوقت دلالة على فشله الإعلامي المرئي والمطبوع تحديداً، بالتأكيد هذا الفشل هو نتيجة تراكمية لسنواتٍ ماضية، زادت مع تعاطيه للواقع بصورة أخذت طابع الهجومي على الأعداء وتخوينهم، ونسي هموم الشارع دفاعاً عن "القائد الملهم".
بينما انصب اهتمام الصفحات الموالية لمراقبة مشاكل الناس في رسالةٍ ضمنية من النظام بأنه يحارب الفاسد زيقبل النقد ويدعم تطلعات الناس، متناسياً أن إعلامه المسئول الأول عن طرح مثل هذه القضايا، والبعد الثاني الذي تتخذه هذه المواقع وهو الأهم اللعب على وتر إيقاع الفتن وتجييش المشاعر.
بالتالي يمكن تبرير تحول الناس إلى مثل هذه المواقع كبديل فعلي عن الإعلام المرئي للنظام.
يأتي ذلك نتيجة للكذب الذي يمارسه الإعلام الرسمي، وهو أمرٌ مشابه للإلكتروني الموالي، لكن الكثيرين تثيرهم القضايا التي تحمل الفتنة طابعاً لها، أو تثير فيه الإحساس بالإنصاف من جهة مدعومة من "النظام/الدولة".

واستقاء المعلومات يأتي طبيعياً إذا ما لاحظنا الغياب للإعلام الثوري المكبل كما أسلفنا.
تفاوتت قوة هذه المواقع الموالية من حيث إثارتها للفتنة وقوتها ومدى تأثيرها على الأرض، وتعددت أشكالها، ومسمياتها.
الإعلام على صفحات التواصل الاجتماعي من الضروري أن يفهم أنه ليس الجهة المخولة بمعالجة هموم الناس اليومية، إنما يخضع لمفهومٍ وهدفٍ واحد في هذه المرحلة هو خدمة الثورة، ومن المبكر الحديث عن دور لاحق.
يمكن للمتابع أن يلحظ الأمور التالية: هدف مثل هذه المواقع هو التحريض وإثارة الفتن وقلب الحقائق في وقتٍ لجا فيه الشباب خصوصاً والناس عموماً إلى هذه المواقع، ومن خلاله يمكن بث السموم.
بعض المتابعين لهذه المواقع يجدون فيها ضالتهم في ساعات السمر للتندر والسخرية، من العقول التي تكتب فيها والأخرى التي تتلقفها، هذا لا يعني أيضاً غياب أثرها الفتان.
الاستقطاب موجود من مثل هذه المواقع لكنه يوحي أيضاً بانعدام دور النظام وغياب سلطته إلا على مثل هذه المواقع الافتراضية في الوقت الغائب فيه حقيقةً على الأرض في معظم المناطق السورية.
أمام انهيار الإعلام النظامي وتبني حكومة النظام ودعمها لصفحات الفيس بوك الموالية يبدو أن حرب إعلامية تخاض على صفحات التواصل الاجتماعي بقوة من جهة الموالاة.
الجدير ذكره هو ضعف المتابعين المتفاعلين مع الصفحات المحسوبة على الثورة مقابل قوة أمام الصفحات الموالية، من حيث عدد الإعجابات ومن ناحية التفاعل المناصر لها والناقد.
لكن هل ينجح إعلام المعارضة في توجيه دفة المعركة واستقطاب المزيد من المؤيدين والمتابعين له من يدري؟

دمشق خط الدفاع الأول

لم يعد خافيا على أحد خبث المشروع الإيراني في المنطقة العربية، ولكنَّ المدهش هو سكوت المنطقة العربية عن هذا المشروع، وليس من المبالغة أبدا أن نقول إن إيران باتت تسيطر على القرار السياسي والعسكري في أربع عواصم عربية هي دمشق وبغداد وصنعاء وبيروت، فضلا عن عواصم عربية أخرى تقوم إيران بتحريض الشعوب فيها على حكامها كالذي حدث في دولة البحرين، وهنا يجب أن نذكّر الإخوة في الخليج العربي أنهم ليسوا بعيدين عن ذلك الخطر، ومن أراد من العرب في الخليج أن يتأكد من ذلك عليه أن يزور مواقع إيرانية على شبكة الإنترنت ليستعرض صورة الكعبة المشرفة وقد رسم الشيعة الإيرانيون عليها شعاراتهم وكتبوا تحتها عبارات طائفية مسيئة للمملكة العربية السعودية، ويجب أن يعلم الإخوة في الخليج العربي أن إيران التي ما زالت تصر على اسم الخليج الفارسي لها أطماعها المتجذرة تاريخيا في البلاد العربية على أساس طائفي مريض، وأن إيران باتت تسيطر على حدود الخليج الشمالية من جهة سورية والعراق وحدوده الجنوبية من جهة اليمن، وإن إضاعة الوقت في مراقبة الوضع في دمشق وصنعاء لن يكون مطلقا في مصلحة الدول الخليجية الشقيقة، ذلك أن السرطان الإيراني سرعان ما ينتشر ليفرض قوته على الأرض، ولا سيما مع غياب قوى عسكرية جوية داعمة للجيش الحر الفاعل على الأرض، ومن هنا كان لابد من معالجة هذا الوضع بتحالف عربي يكون موجَّهاً إلى رأس الأفعى الذي كان سببا مباشرا في انتشار هذه الفوضى، وهو النظام السوري، وإن إمهال النظام السوري يعني منح النظام الإيراني مزيدا من الوقت لتثبيت وجوده وبثّ خلاياه السرطانية في سورية واليمن، وهذا يشكل خطرا حقيقيا على المنطقة العربية في المشرق العربي، ولذلك لا نبالغ إذا قلنا إن دمشق هي خط الدفاع الأول عن الدول العربية في الخليج العربي، وانهيار دمشق أو بقاؤها مرهونة بالقرار الإيراني سوف يتيح لإيران الامتداد إلى مناطق أخرى في عقود زمنية لاحقة، وللتأكد من ذلك يجب أن نعلم أن السكوت العربي عن تصرفات حزب الشيطان في لبنان منذ إنشائه وإلى الآن أدى إلى بروزه قوة فاعلة ومسيطرة على القرار السيادي اللبناني حتى إنه ألغى سيادة القانون في الدولة اللبنانية نفسها وصادرَ ذلك لمصلحته حتى في المناطق ذات الأغلبية السُّنِّيَّة التي لا حول لها ولا قوة بسبب غياب النصير لها، وهذا ما أتاح لحزب الشيطان بعد عقود أن يدخل إلى سورية، وأن يمتد بنفوذه إلى اليمن.

من هذه الناحية كان لابد علينا جميعا أن نقف صفا واحدا في وجه هذا الامتداد السرطاني للنظام الشيعي الخبيث، وإنني أرى بوضوح أن تدخل قوى عربية خليجية في سورية لنصرة الشعب السوري المظلوم سوف يكون له آثار سياسية وعسكرية وأمنية مهمة، منها: خلاص الشعب السوري من النظام الأسدي الذي كان سببا في هذه الفوضى بسبب تمسكه بالسلطة حتى انتشرت الفوضى في المنطقة كلها بسببه، ومنها أن الشعب السوري لن ينسى يد الإحسان التي امتدت له لمساعدته في الخلاص من جلّاديه، ومنها أن الدول العربية الداعمة لهذا المشروع سوف تضمن أمان بلادها، وإنه من الخطورة بقاء الأسد الذي لا يحكم سورية، لأن حكام سورية اليوم هم الإيرانيون، ولذلك يجب تأمين غطاء جوي عربي داعم للمعارضة في المناطق التي تحقق انتصارات، وكلنا نعلم أن الثوار في الأسابيع الماضية أثبتوا على الأرض مقدرتهم العسكرية وحنكتهم في إدارة المعركة من خلال السيطرة على مواقع حزب اللات، غير أن القوات البرية تحتاج إلى دعم لوجيستي على الأرض، ولا سيما من جهة الحماية الجوية التي نأمل أن تقوم دول خليجية، منها المملكة العربية السعودية، بفرضها على الأرض، وإنَّ دعمَ الدول الخليجية لهذا المشروع سوف يكون علامة فارقة في ذهن الشعب السوري المظلوم الذي لن ينسى أبدا وقوف الأشقاء إلى جانبه.

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون »
كلمات على استحياء حول واجب الإغاثة أثناء الثورة

نبيل شبيب

من البداية تعمد النظام الأسدي الإيراني سلوك نهج إجرامي يستهدف مضاعفة الأعباء الثقيلة على الشعب الثائر، وكان من ذلك التشريد المتعمد والحصار الممنهج، فشهدت أربع سنوات كيف أصبح نصف من كان داخل الحدود من شعب سورية مشردا ونازحا وقسم كبير محاصرا، هذا علاوة على أن ثلث الشعب بمجموعه يعيش من قبل الثورة في المنافي والمغتربات.

هذا ما جعل الإغاثة قضية قائمة بذاتها ضمن نطاق القضية الأكبر والأشمل: ثورة التحرر، وهذا ما جعل الإغاثة واجبا مفروضا على كل فرد قادر، لا سيما وأن كثيرا من القوى الإقليمية والدولية تعاملت مع "الإغاثة" لتكون -جزئيا على الأقل- أداة من أدوات ممارسة الضغوط لتحقيق أهداف تلك القوى ومآربها، وعلى وجه التحديد تطويع مسار الثورة لتكون حصيلتها في نطاق معادلة التبعية والهيمنة، المنتشرة عالميا لا سيما في المنطقة العربية والإسلامية، ولا يستثنى من ذلك السلوك المنافي للمعاني الإنسانية سوى القليل من المنظمات الدولية غير الخاضعة للحكومات، وإن اعتمد أكثرها على تمويلها إلى جانب التبرعات العامة.

ليس واجب الإغاثة خلال الثورة واجب طرف دون طرف، أو فصيل دون فصيل، أو منظمة دون منظمة، بل هو واجب الجميع، ولا بد أن تسري على الجميع قواعد أساسية في أداء هذا الواجب، تمنع من تحويل الإغاثة إلى أداة تضيف مزيدا من أسباب التعثر في مسار الثورة، أو حتى التمزق والتشرذم.
ليس الحديث هنا عن الفساد والمفسدين، فجرم الفساد عظيم في الأحوال الاعتيادية وهو أشد حرمة وأكبر وأنكى في الوضع الراهن أثناء الثورة، وهذا ما لا يخفى على ذي بصر وبصيرة، ولكن التعامل مع الفساد والمفسدين هو من شأن القضاء التخصصي المستقل عن كل ارتباط تعددي، مما يحتاج بدوره إلى بذل جهود متميزة.
الحديث هنا عن قواعد يرجى ازدياد الالتزام بها من جانب كافة المخلصين العاملين في الإغاثة من جميع الفصائل الثورية والتشكيلات السياسية ومنظمات المجتمع الأهلي/ المدني، دون استثناء.

في مقدمة ما يسري على قطاع الإغاثة:
﴿ أنفقوا من طيبات ما كسبتم . . . ﴾
﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾
ويسري أيضا: ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾.. فهذا مبدأ أساسي لقطاع الإغاثة، ولكن أين يكون التنافس؟..

١- ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾..
التنافس الأكبر المطلوب هو على تجنب آفة الغرور والاستعلاء والمنّ على من يتلقى الإغاثة، فذاك أسوأ تأويل خاطئ للحديث الشريف حول "اليد العليا"، فليس من يتلقون الإغاثة متسوّلين مع القدرة على عمل، بل الذين يعطونها هم المتسوّلون في هذه الحياة الدنيا على باب الله عز وجل ليحصلوا على الأجر يوم الحساب،

وهنا يتنافس المتنافسون، وهم الذين إذا امتنعوا عن تقديم ما يستطيعون ارتكبوا إثما، بعدم أداء الواجب مع القدرة على أدائه، ففي أموالهم هم.. في ثرواتهم.. في جميع ما يملكون، حق معلوم للسائل والمحروم.

٢- ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيرا﴾..

التنافس المطلوب هو على الوصول بأكبر قدر من الإغاثة إلى أكبر عدد ممكن من المحتاجين إليها، دون تمييز بين قريب وبعيد، وإنسان وإنسان، وموقع وموقع، ودون تمييز بسبب انتماء أو ولاء أو معتقد، كذلك لا ينبغي بحال من الأحوال إغفال حاجة الثوار المسلحين إلى الإغاثة المعيشية، بل ولا ينبغي أيضا إغفال "الأسرى من العدو" كما تعلمنا الآية الكريمة ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ .

٣- الصدق أمانة والكذب خيانة..

يجب أن يتجنب التنافس بين العاملين في الإغاثة السعي غير المشروع لكسب "قنوات" الدعم، باختلاق معلومات وأرقام وقصص لا تلتزم الصدق المطلق في التعريف بالذات، ناهيك عن تجاوز ذلك إلى ما هو أشدّ حرمة عبر الافتراء على العاملين الآخرين في الإغاثة كيلا يكون "نصيبهم" من الدعم هو الأكبر.

٤- ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾

التنافس المطلوب هو على الإحساس بالسرور لأداء الواجب بحد ذاته، وليس لأدائه تحت هذه الراية أو تلك، وباسم هذا الطرف أو ذاك، لا سيما من خلال الانزلاق إلى ربطه برؤية ما، سيان هل كانت على حق أم لم تكن، أي من أجل بروز فصيل أو أكثر من الثوار في منطقة من المناطق أو ميدان من الميادين.. فليست آلام الناس واحتياجاتهم وسيلة لذلك، وإن الغاية مهما كانت سليمة قويمة بنظر صاحبها، لا تبرر استغلال هذه الآلام والاحتياجات.

٥- ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾

الأصل في العمل الثوري المسلح والسياسي هو العمل على التنسيق وتوحيد الكلمة والصفوف، وهو ما يستدعي اختصار عدد الرايات والتنظيمات وتجميعها، أما في العمل الثوري الإغاثي فإن التنسيق والتعاون والتكامل يتحقق مع وجود أكبر عدد ممكن من التشكيلات الإغاثية، لا سيما فيما تستدعيه الحاجة إلى "التخصص النوعي"، أو المعرفة الجغرافية والاجتماعية المباشرة بمواطن أداء الواجبات المطلوبة.. فليس في مثل هذا التعدد مشكلة إلا عند تحويله إلى سبب صراع مرفوض بدلا من تنافس إيجابي مطلوب.

إلى الله عز وجل نتوجه أن يحقق الفرج لكل مظلوم ومحروم، وكل مشرد ونازح، وكل مستضعف ومحتاج، وكل جريح ومعتقل، وكل صابر على فراق أحبته من الشهداء أو المشردين أو المجاهدين الصادقين.. إلى الله عز وجل يجب أن يتوجه كل قادر على الإغاثة، أن ينعم الله تعالى عليه بالمزيد من العطاء.. ليؤدي واجبه أضعافا مضاعفة، وألا يتعرض لابتلاء بحرمان أو تشريد أو مصيبة من مصائب الدنيا، وأن يعينه على أن يتصور نفسه في كل يوم في موقع من يقدم لهم العون، ليستشعر أنه يقدم العون لنفسه، وما أحوجنا جميعا إلى ذلك في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

صديقي الشهيد.. لا أحد

إن لم تستوقفك وجوهم الملوحة في الشمس، ولحاهم السوداء، وثيابهم البسيطة الداكنة، فلا شك أن ‘‘جوالاتهم’’ ستتكفل بذلك، ستصدح بالقرب منك فجأة أنشودة ‘‘جهادية’’، وسترى شاباً يحمل هاتفاً ‘‘ذكياً’’، وستكون شاشته مغطاةً بصورته ممتشقاً السلاح، أو صورة شهيدٍ من أقربائه أو أصدقاءه، أو قد تكون خلفية الشاشة المضيئة مغطاةً بعلم ‘‘جهادي’’، لكن إن لم يُترك الهاتف، فما عليك إلا إلقاء نظرة على حسابه الشخصي في ‘‘فايسبوك’’ و‘‘تويتر’’، فمن خلال الأسماء، والصور، وعبر البوستات والفيديوهات التي يشاركها، أو التي يلاحقها، (ذلك أنه نادراً ما يكتب، يكتفي بكتابة غيره، فلا يهمه فعل الكتابة، وربما لا يجيدها أصلاً) ستكتشف أشياء عنه، وستتعرف من صفحته على أسماء "المحيسني"، و"الطريفي"، و"أبو ماريا القحطاني"، وغيرهم، وفيها ستتابع أخبار المعارك، وانتصارات المقاتلين ـ كل المقاتلين ـ ضد النظام، لكنك ستكون مخطئاً جداً فيما لو اعتقدت أنه من جنود "الدولة"، أو "النصرة"، أو أنه متشددٌ، أو إرهابيٌ..

في السابق كان ‘‘جواله’’ يصدح بأغنيات أخرى، "حيوا الجيش السوري الحر" مثلاً، أو "ثورة عز وما تنذل"، أو "حمص يا دار السلام"، لكن الأمر لم يعد على هذا النحو منذ بعض الوقت، والأرجح أنه ذاته لم يلاحظ ذلك، ولم يتوقف عنده، فالانتقال كان سلساً وهادئاً، وبعيداً عن قعقعة ‘‘التنظير’’ الفارغ، الذي لا يعرفه ولا يهمه، وهذا يشبه تماماً انتقاله السابق من شابٍ ‘‘عابثٍ’’، (عمره الآن بين أوائل العشرينيات وأوائل الثلاثينيات)، مدخنٌ، يعاقرون الكحول ربما، وجرب الحشيش أحياناً، يحظى بالكثير من العلاقات و‘‘الصديقات’’، ويمضي وقته في لعب الورق، ومتابعة قنوات الأفلام، إلى رجلٍ ‘‘ملتحٍ’’، و‘‘مقاتلٍ’’ ضد النظام. اعتاد وأصدقائه سابقاً ارتياد البارات، والنوادي الليلية، وبما أن الحرب أوقفت حياة الليل ـ والنهار أيضاً ـ فمن المرجح إن عادت الحياة، أن يعود للهوه الضائع.

في سهراته، وليالي سمره يستذكر أيام اللهو بسخريةٍ، يسميها الآن ‘‘أيام الجاهلية’’، إلا أن سخرياته تحمل في طياتها مشاعر الحنين، والفقد، (ولا شك أن الحنين بات شعوراً سورياً بامتياز)، لذلك لا تجده ينكر ما كان فيه، وغالباً ما ينتهي استذكاره بإطلاق نكتةٍ، تليها ضحكة صاخبة تنهي الأمر.

يواظب الآن على الصلاة، ويتمسك بالشعائر الدينية، ويحاول الإقلاع عن التدخين، لكن التغييرات التي طاولته، لم تتجاوز ذلك، فلم تختلف حياته كثيراً، لازال يسمع الموسيقى، يتابع الأفلام، ويلعب الورق، وقناعاته لم تتغير أيضاً، إلا بالقدر الذي اقتضاه التقدم في العمر، أما أحلامه فلازالت هي نفسها، بسيطة وواضحة، إسقاط النظام والعودة للحياة.

ما الذي سيحدث بعد سقوطه؟ ومن الذي سيحكم؟ تلك أمور لا تبدو أنها تعنيه، فلا يتوقف عندها ولا ينشغل بها.

لم تسقط عليه التغييرات من أعلى، ولم تفرضها سلطة خارجة عنه. لم يكن ك"عمر" الذي قال لصديقه "طارق": بابا بدو يانا نبلش نصلي كل جمعة بالجامع، قال: لأنو ما في مدرسة الدين بينفعنا..

بدو يانا نقرأ القرآن..

بدو يانا نصوم برمضان..

بابا قال كمان: المسرح حرام، والسينما حرام، وموسيقى الروك أند رول ‘‘خلاعية’’، لأنها موسيقى من عمل الشيطان.

وكان ذلك في فيلم "ويست بيروت" للمخرج "زياد الدويري"، الذي يحكي قصة حرب والد "عمر" وأقرانه، وتدابيرهم الحربية ‘‘الأهلية’’ الغبية التي قرروها، (ذلك أن الآباء لطالما تفرغوا لإشعال الحروب، فيما ينشغل الأبناء بالحياة والثورة).

في سوريا فجر الأبناء ثورتهم، التي زلزلت عالم ‘‘الكبار’’، فوقفوا يتفرجون على ‘‘صغارهم’’ وهم يواجهون الموت ويصرعونه، وقد استلزم نزال ‘‘الصغار’’ مع الموت إجراء تغييراتهم الخاصة، واتخاذ تدابيرهم ‘‘الصغيرة’’.

عرف ‘‘الصغار’’ أسرار الحياة كما لم يعرفها غيرهم، ورغم أنهم ليسوا على قدر عالٍ من التعليم والثقافة، إلا أنك ومهما كنت متعلماً لا بد وأن تشعر بالضآلة والعجز أمامهم، في كل مرةٍ ستتعلم منهم شيئاً جديداً، وستُدهش لاكتشافك أنك لم تكن تعرف الحياة، وكأنك لم تكن حياً قبل أن تلتقيهم، وحدها الحياة تعرفهم جيداً، لأنها تعرف صانعيها، أما الناس فلم يسمعوا بهم، وحتى عندما يُعتقلون أو يستشهدون لا تصيبهم الشهرة ـ هم لا يسعون إليها أصلاً ـ وحين يكتب أحدٌ عنهم، فغالباً ما يُخفي وجوههم،

ويُغفل أسماءهم، ويُهمل حياتهم، فيقرر ''ثائر'' في السويد مثلاً، أو ''ناشط'' في ألمانيا، أو منظر في ماليزيا أو تركيا، أن أولئك ''الصغار'' لم يقدموا شيئاً، بل سرقوا الثورة، وسعوا إلى أسلمتها، وحرف مسارها.!

لن يُكتب عنهم كما كُتب عن "رزان" ورفاقها، لن يقول أحدهم مثلاً: تناولت العشاء و"أبا موفق" ليلة استشهاده، أو أيقظني كابوسٌ عن "أبي عمار" وهو يصرخ في وجه جلاديه، أو تذكرت "أبا أحمد" وهو يلفظ أنفاسه في جبهة الجرد، ولن يقول أحدٌ غنيت مع "الصوان" و"دياب" قبل ليلتين من تحولهما إلى أشلاء، ولن يهتم أحدٌ لمعرفة من يكون "أحمد"، "ضرار"، "هيثم"، "باسل"، "الحمزة"، "باسم"، "منذر"، "أبو مدحت"، وآلاف غيرهم، ولن يبالي أحدٌ.

كنت قد قررت ألا أكتب عن الشهداء، والمعتقلين، ففي كل مرة كنت أفعل، كان ينتهي النص بالكتابة عن نفسي، عن معاناتي، وألمي، لذلك أعلنت أن الكتابة عن الغائبين ليست سوى ''متاجرة''.

لن يعرف أحدٌ يوماً كيف تشعر "رزان" في سجنها، وما هو حجم عذابها، مهما كان قريباً منها، ومهما كان يحبها، الكتابة عن الغائب لا تفيده، ترفع شأن الكاتب فقط، تعلي قدره، وترضي غروره، وأنانيته، وتسكن ألمه، ومع ذلك أجدني أحياناً مدفوعاً للكتابة عن غائبٍ مجهولٍ، أفكر أنه لا يجوز أن يكون مروره في الحياة عابراً، طالما هو أكبر منها، وقد صرعها، وانتصر عليها بموته، ثم تواضع ليمنح مسارها العبثي بعض القيمة، والمعنى.

لكن كيف أكتب دون أن تبرز ذاتيتي؟ دون أن يبدو أنني أرتقي على حطامه؟ دون أن تكون كتابتي استغلالاً لكفاحه وتضحياته؟ كيف أكتب دون أن يبدو أنني خائفٌ، وغير مستعدٍ لأن أكون مكانه؟

نظام الأسد والهريسة

اياس غالب الرشيد

تعرفت على الهريسة مبكرا؛ في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وكنت أشتري قطعة منها بربع ليرة، لا أدري كم هو المقدار بالضبط، ولكن القطعة كانت كافية لترضي رغبتي ، حيث كان يضعها لي أبو حسن على قطعة ورق، وبعد أن أنتهي من هذه القطعة، أبدأ بلعق ما تبقى منها على جسد الورقة، ثم أقوم بمص أصابعي حتى الثمالة منتشيا بها، ولم تكن هذه مصادري الوحيدة للهريسة، فقد كان شباب حارتنا يعقدون مراهنات على أشياء كثيرة، والخاسر يجلب الهريسة، وكنا -نحن الصغار- ننال نصيبا من هذا الخير؛ بالإضافة لما كانت تجود به جدتي- أم خالد رحمها الله- لأنها هي كانت أيضا مولعة بالهريسة . مرت سنوات طويلة ،وازداد شغفي بالحلوى ،وظللت أكن تقديرا خاصا للهريسة. ولم أكن أعلم أن سيكون لها فعل رديء على أسناني، ومن المصادفات العجيبة أنني لم أشعر بمشكلة في الأسنان إلا بعد انطلاق الثورة السورية بأسبوعين، حيث ثارت علي جميع أضراسي، وبدأ الألم المبرح الذي لا أشكوه إلا لله سبحانه وتعالى. حاولت جاهدا أن أصلح ما أفسده الدهر والهريسة من أضراسي ،ولكن عبثا، فكل أطباء الأسنان الذين زرتهم قالوا لي: يجب عليك قلع جميع الأضراس، ولا مجال للإصلاح ألبتة، فحاولت الاحتيال بالمسكنات كلما التهب أحد الأضراس؛ فيسكن ثم يثور الآخر ، حتى فقدت السيطرة تماما عليها، فتوصلت إلى نتيجة لابد من نسف هذه الأضراس جميعا، والإتيان بأضراس جديدة عصرية . في الفترة التي بدأت علاقتي فيها مع الهريسة عقد حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا مؤتمره القطري عام ١٩٨٠، وقال رفعت الأسد فيه: إن ستالين قتل عشرة ملايين سوفييتي من أجل الحزب والنظرية، ورفض حافظ الأسد محاسبة الرفاق البعثيين على الثراء غير المشروع، فبدأت المرحلة الممنهجة للفساد والإفساد والتوحش ضد الشعب؛ ضمن أطر نظرية حزبية. مرت كل هذه السنوات فنخر سوس الفساد أضراس الدولة حتى تحولت إلى استباحة كاملة، بعد إقصاء كل الخبرات العلمية والثقافية بالقتل التهجير والاعتقال، وغرق هذا النظام في هريسة الفساد، كما غرقت فيه أضراسي، وتحولت الدولة إلى ركام سياسي واقتصادي وثقافي غير مفهوم؛ فنحن عروبيون ولكن نتحالف مع إيران، و بعثيون يساريون ونتحالف مع المؤسسة الدينية الصوفية ومع الملالي، وحكام البلاد من الطبقة الكادحة ولكنهم يصرفون على الويسكي والقمار والكافيار ورحلات التسوق والتزلج والاصطياف على شواطئ البوسفور والبحر الأسود ما يصرفه ملايين السوريين على الصحة والتعليم من جيوبهم المنهكة أصلا، ونحن جمهوريون ونورث الحكم. وعندما انطلقت الثورة هب هذا النظام إلى عيادات الإصلاح ،كما ذهبت أنا إلى عيادات الأسنان ،ولكن سُدىً، لا يمكن فعل أي شيء إلا اقتلاع هذا النظام، الذي لا يمكن أن يعيش في المستقبل، واستبدله بنظام عصري جديد، وبعدها نستطيع الاستمتاع بالهريسة ،أو أي حلوى أخرى نريدها، لأننا في ظل هذا النظام سنشعر بالمرار حتى ولو أكلنا المن والسلوى.

العشوائيات ... دونية اجتماعية وبنادق موجهة

ل. ن

قبل أن نعي حجم الخراب المنظم من حولنا، كان النظام قد أنجز الكثير منه، وبأكثر من شكل وأسلوب، حتى باتت شبكة العنكبوت أكثر إحكاماً ودقة، فليس عبثاً أبداً الاهتمام بمحافظاتٍ أو مدن معينة على حساب غيرها، ذاك الإهمال المقصود أفقد السوريين كثيراً من ملامحهم الخاصة بحثاً عن لقمة عيش أو فرصة عمل، بالمقابل اكتظت مراكز أخرى، فقدت هي أيضاً هويتها، منها دمشق التي لم تعد تشبه نفسها منذ أعوام.

نتائج الاكتظاظ لم تنحصر فقط في ما ردده الإعلام، في مجالات التنمية والتطوير والاقتصاد، حقيقةً إن ما خلفه ارتفاع أعداد السكان في دمشق مثلاً كونها الأكثر تضرراً، كان هائلاً، تجلى في عشوائيات سكنية انتشرت حولها، بدت لوهلة فوضوية ومفتوحة، وهذا ما تبدد لاحقاً، تلك العشوائيات كانت نموذجاً لتشكيلات مجتمعية جديدة، في جوهرها كثيرٌ من البؤس والأوجاع.

وتطورت مع الوقت من دون أن تحظى بشبكات الماء والصرف الصحي النظامية، وخطوط التوتر العالي، ناهيك عن الحدائق والشوارع العريضة والمراكز الثقافية وظروف الحياة اللائقة الأخرى. ويمكن القول أن ٤٦ في المئة من سكان مدينة دمشق يقيمون في «مناطق المخالفات»، بحسب إحصاءات المكتب المركزي للإحصاء للعام ٢٠٠٧. وبحسب هذه النسب والأرقام، رغم ما يصاحبها من شك، فإن ما يقارب من ٧٠٠ ألف نسمة يعيشون في أحزمة الفقر هذه (هناك أرقام متداولة غير رسمية توصلها إلى ٢,٥ مليون في دمشق وريفها). وتصل نسبة السكن العشوائي إلى ما يعادل نصف السكن الإجمالي في سورية، يتوزع على ١٤٧ منطقة، جرت إقامتها وتزويدها عبر سنوات بموضوعها البشري، بدءاً بالمفقرين الذين لفظتهم المدن إلى أطرافها، مروراً بموجات الهجرة من الأرياف القريبة المترافقة مع تدهور قطاع الزراعة، وصولاً إلى الخروج الكبير بعد موجة الجفاف الأخيرة التي ضربت عمق الريف السوري في منتصف العقد الماضي، وما أشرنا إليه بداية.

يدرك سكان الريف الدمشقي، من انتشرت العشوائيات بمحيط مناطقهم، أن جيرانهم يوازونهم فقراً واضطهاداً، ويفوقونهم جهلاً وضياعاً، ربما كان تعدد طوائفهم وقومياتهم سبباً في ظهور إشكاليات إضافية في مناطقهم المحصورة نسبياً، وقد كانوا لسنوات خلت موضوعاً مطروقاً، لكن ذلك لم يصبح واقعاً ملموساً بالنسبة لهم، بل ربما ساهم تجاهل المعنيين لهم بتفاقم أوضاعهم سوءاً فانتشرت المخدرات في أوساطهم، وكثر الحديث عن جرائم وتجاوزات ومآسٍ اجتماعية.

مع بداية الثورة نجح النظام في استقطاب سكان العشوائيات، من أفقدهم الكثير من أخلاقياتهم ورغبتهم بمستقبلٍ أفضل، بعيداً عن المخالفات ودونية الوجود، إضافةً إلى أن معظم هؤلاء من أقليات قومية مغيبة أو من الطائفة الحاكمة، وإن كانوا في أدنى السلم الإنساني والقيمي بالنسبة لرؤوس الحكم، إلى أن باتوا اليوم بنادق موجهة لصدور أبناء جلدتهم من السوريين. ورغم أنهم نجحوا في إلحاق ما يمكن من أذى وعرقلة، لكنهم وعلى الجهة الأخرى لا يضيفون إلا بؤساً لبؤسهم، وجرماً يفوق ما اقترفه النظام بحقهم، لكن من يدري ربما ينبت في سم جحيمهم فطرٌ نافع يعيدهم إلى صوابهم كسوريين، لا مكان لهم بعيداً عن جيرانهم.

كاريكاتير العدد

فريق QMT قدسيا الإعلامي